الثورة الجزائرية وأثرها على حرب السويس

أ.د. دحو فغرور

كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية

– جامعة وهران–

إن الثورة الجزائرية مثلت منذ الوهلة الأولى تحديا متعدد الجوانب لفرنسا: إنسانيا، استراتيجيا، اقتصاديا،... فمن جهة، أصبح مصير مليون مستوطن يزداد ظلمة كلما ازداد الصراع اتساعا في المكان و طولا في الزمن. كما أن من حيث التوقيت، حدثت الثورة في وقت بدأت قوة فرنسا تتراجع في العالم. لقد خرجت فرنسا من الحرب العالمية الثانية منهوكة القوة، و لذا بدأت مستعمراتها التي كانت في زمن غير بعيد تغطي كل قارات العالم ، تتقلص بشكل متسارع. فمباشرة بعد نكسة "ديان بيان فو" و الجلاء من مستنقع الهند الصينية، اشتعل لهيب الثورة الجزائرية بلا سابق إنذار. فكان رد الفعل الفرنسي الرسمي بل و حتى الشعبي، أن الجزائر' معركة لا يمكن خسرانها مهما كلف الأمر '. و من هذا الباب يمكننا إدراك حجم الطاقة التي وظفتها فرنسا لكسب الرهان الجزائري، بل و مخاطرتها بتهديد السلم و الأمن الدوليين مرتين من أجل ذلك: المرة الأولى، بالمشاركة في العدوان الثلاثي على مصر فيما يعرف ب"حرب السويس سنة 1956م". و المرة الثانية، بعدوانها على ساقية سيدي يوسف، و دائما بنفس الحجة: إرغام كل من مصر و تونس على قطع الدعم عن الثورة الجزائرية.

و إن كان كلا الموضوعين جديرين بالدراسة الأكاديمية، فإننا لأسباب موضوعية تتعلق بحجم و طبيعة المقالات التاريخية ارتأينا في هذا المقام إفراد علاقة الثورة الجزائرية بحرب السويس بالدراسة ، مركزين على طبيعة الشخصية التي كانت تحكم مصر آنذاك و المتمثلة في الزعيم "جمال عبد الناصر" و خاصة ما يتعلق به الأمر من دور الفكر الناصري في قضايا التحرر عامة و قضية تحرير الجزائر على وجه الخصوص.

إن علاقة جمال عبد الناصر بالثورة الجزائرية مسالة لا يكاد ينكرها أحد. حول هذا الموضوع صدرت دراسات و كتابات عديدة واكبت الحدث في مجلات و صحف تلك الفترة. بل تعدتها، و تبلورت في شكل دراسات أكاديمية، و شهادات مكتوبة لشخصيات مرموقة كان لها باع كبير في رسم معالم و مضامين تلك العلاقة[1].

و نظرا للسرية التي أحيطت بها تلك العلاقة آنذاك، مازال العديد من جوانبها يكتنفه الغموض، و يشكل مجال تفكير جدير بالأبحاث المختصة. و مازالت الشهادات الشفوية و المكتوبة تكشف لنا يوما بعد يوم أسرار ذلك التفاعل و التلاحم العميقين بين ثورتين عملاقتين: الثورة المصرية و الثورة الجزائرية.

و الموضوع الذي اخترناه مادة لهته الدراسة، إن لم يتناول بطريقة مباشرة دور جمال عبد الناصر في نصرة القضية الجزائرية ماديا و معنويا، فإنه يشكل أكبر دليل لذلك الدعم. و كيف يكون الأمر عكس ذلك؟ و نحن نجد مصر تدفع من أجل وقوفها إلى جانب الجزائر أغلى الأثمان حيث تتعرض إلى عدوان غادر اشتركت فيه ثلاث دول قصد كسر شوكة ذلك الزعيم العربي الذي رأى فيه الغرب عدوا كبيرا يهدد كامل قيمه القائمة على التسلط و الاستعمار، و استضعاف بقية الشعوب.

لقد كانت فرنسا على دراية بعلاقة مصر بالثوار الجزائريين قبل اندلاع الثورة، أولى الإشارات المتعلقة بتورط مصر في المشكل الجزائري صدرت عن العامل الفرنسي فوجور Préfet Vaujour الذي قام بإعداد تقرير مفصل عنوانه "كمندوس شمال إفريقيا"[2]، و هذا قبل 1 نوفمبر 1954م بستة أشهر. لقد أشار هذا التقرير إلى تواجد مجموعات مسلحة تدعمها مصر في كل من ليبيا، و الأقاليم الاسبانية في المغرب و كذا اسبانيا. فهؤلاء الكومندوس –كما جاء في التقرير– هم مجندون من بين طلبة شمال إفريقيا المتواجدين في الدول العربية و كذا من جموع الحجاج المتوجهين إلى البقاع المقدسة.

إلا أن مثل هذه الإشارات المنذرة، بدل أن تجعل باريس تفكر في النتائج التي سوف تترتب عن ثورة محتملة في الجزائر، أفرزت في الواقع ردود فعل مغايرة تماما. لقد رأت فرنسا في اشتراك مصر في مثل هذه التحضيرات، تدخلا خارجيا في شؤونها الداخلية. و هكذا اكتسب المشكل الجزائري منذ ذلك الحين أبعادا جديدة في الدوائر السياسية الباريسية، حيث أصبح ينظر إلى جمال عبد الناصر على أنه مصدر كل متاعب و مشاكل فرنسا في شمال إفريقيا.

في واقع الأمر، لم تحاول أي حكومة من حكومات الجمهورية الرابعة مجابهة الثورة الجزائرية في إطارها الجزائري الصرف. لقد كان الساسة الفرنسيون ينظرون دوما إلى الثورة الجزائرية على أنها مؤامرة خارجية أحيانا ناصرية وأحيانا أخرى سوفياتية.

لقد بلغت تصرفات بعض الساسة الفرنسيين درجة الهستيريا حيث ساء ظنهم بكل من أراد أن يقول كلمة حق أو يقترح اقتراحا يخص المسألة الجزائرية، هذا يظهر جليا من سلوكهم اتجاه شخصيات ذات سمعة طيبة عالميا أمثال إرفن براون Irving Brown رئيس فيدرالية الشغل الأمريكية AFL-CIO .الذي حينما حاول هو و أمثاله إقناع فرنسا بأن الجزائريين يقاتلون من أجل حريتهم و ليس من أجل القاهرة أو موسكو، كان الرد الفرنسي هو إقصاء هذه الأصوات و من حذا حذوها من المنطقة، و ظهر ذلك جليا في منع إرفن براون من زيارة الجزائر يوم 8 ماي 1956م بأمر من الحاكم العام الفرنسي نفسه في الجزائرروبرت لاكوست Robert Lacoste [3]. إن موقف عبد الناصر المناهض للاستعمار و الإمبريالية لم ينظر إليه من زاوية أنه كان ربما يمثل "حتمية سياسية و نتيجة طبيعية للروابط الوطنية المعهودة لدى القادة الآسيويين و الأفارقة، و حتى قادة أمريكا اللاتينية"[4]. في المقابل أجمعت كل المدارس السياسية السائدة آنذاك في فرنسا خلال الخمسينيات على أن تحطيم عبد الناصر سوف ينجم عنه بلا أدنى شك انهيار و فشل الثورة في الجزائر.

ففي أذهان رجال أمثال جاك سوستال Jaques Soustelle حاكم عام الجزائر ما بين " 1 يناير 1956م و فبراير1956م"، لم يمثل الدافع الذي أدى بعبد الناصر إلى القيام بتدعيم الثورة الجزائرية سوى جزء من مخطط كبير يهدف إلى تأسيس إمبراطورية عربية تمتد من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي، و هو تصور بطابع الحال لا يتسع لا للوجود الفرنسي و لا للوجود الغربي. و من هنا، شاع على ألسنة السياسيين الفرنسيين نعت عبد الناصر بأنه القائد الروحي و المادي للثوار الجزائريين.

و بناء على ذلك، قررت مختلف الحكومات الفرنسية نهج سبيل الحرب بلا هوادة ضد الثوار الجزائريين و عبد الناصر على حد سواء. لتحطيم عبد الناصر، لجأت الحكومة الفرنسية في بادئ الأمر إلى إعلان حصار اقتصادي و عسكري ضد مصر.لقد رفضت فرنسا في فبراير 1956م، بيع مصر مائة "AMX - 13" بحجة أن هذه الأسلحة ربما ستجد طريقها إلى أيدي الثوار الجزائريين. في مقابل ذلك أبرمت صفقة مماثلة مع إسرائيل[5].

كان رد عبد الناصر على فرنسا عنيفا. لقد قام في 27 سبتمبر 1956م بالتصريح بصفقة السلاح مع تشيكسلوفاكيا، و رد متحديا غي مولي Guy Mollet قائلا: "توسلنا بإلحاح للحصول على الأسلحة، في نفس الوقت كنا مصممين على التمسك بمبادئنا..."

و ماذا كانت النتيجة...؟ فرنسا كانت دائما تماطل، قائلة أنها سوف تمدنا بالسلاح على شرط أننا... نغض الطرف عن "المجزرة التي كانت تجري في شمال إفريقيا". سألناهم بدورنا كيف يمكننا أن ننسلخ من طبيعتنا العربية أو نضرب بعض الحائط إنسانيتنا. عملية تزويدنا بالسلاح الفرنسي ظلت مثل السيف يهدد رؤوسنا. لقد هددتنا فرنسا مرارا أنها سوف تحرمنا من الأسلحة و أنها ستزود بها إسرائيل..[6].

إن فرنسا، بالرغم من صراعها مع عبد الناصر حول المسألة الجزائرية، كانت ما تزال على استعداد للتعامل مع مصر حول مسألة خاصة: عدائهما المشترك لحلف بغداد. لقد رأت فرنسا في هذا الحلف وسيلة أخرى للحفاظ على النفوذ البريطاني في منطقة عرفت في سنوات مضت نفوذا فرنسيا قويا [7] و من هذا الباب حاولت فرنسا استغلال هذا القاسم المشترك مع مصر للضغط

على عبد الناصر. و عليه قام كريسيان بينو Christian Pineau وزير خارجية فرنسا بعرض صفقة سياسية على عبد الناصر مفادها أن فرنسا سوف تضم جهودها إلى الجهود المصرية لمجابهة حلف بغداد و مقابل ذلك تكف مصر عن مساعدة الثورة الجزائرية. اكتفى عبد الناصر في رده على الاقتراح الفرنسي بتكذيب الأخبار القائلة بوجود جزائريين يتدربون في مصر[8].

إلى غاية 1956م، تعاملت فرنسا مع عبد الناصر عن طريق استعمال أسلوب الترغيب و الترهيب المعروف بسياسة " الجزر و العصا" و ظل الأمر على هته الحال إلى غاية نهاية 1956م حيث وقوع حدثين هامين جعلا من سياسة العصا تحتل الصف الأول متخذه الصدارة.

تمثل الحدث الأول في اعتراض البحرية الفرنسية لسفينة أتوس في 17 أكتوبر [9]، أما الحدث الثاني، فكان عملية القرصنة الجوية التي قام بها سلاح الطيران الفرنسي ضد طائرة المملكة المغربية التي كانت تقل زعماء الثورة بالخارج من الرباط إلى تونس[10].

فالسلاح الذي كان على متن السفينة و الذي كان في طريقه إلى المجاهدين عبر المغرب، و كذا الوثائق التي قبضتها السلطات العسكرية بحوزة قادة الثورة مثلت الحجج الدامغة التي ظل ساسة فرنسا يبحثون عنها منذ نوفمبر 1954م، و التي تثبت بلا شك تورط عبد الناصر في الثورة الجزائرية. بالنسبة لفرنسا، لقد أصبح بحوزتها 'the smoking gun' أي ما يكفيها من الأدلة لتبرير أي استعمال للقوة ضده [11] و للتنديد بنصرة عبد الناصر للثورة الجزائرية، استدعت فرنسا سفيرها ترافليان Travelyan من القاهرة في 23 أكتوبر.

في نفس الوقت، شرع عبد الناصر في تطبيق برنامج سياسي جديد شكل تهديدا مباشرا لمصالح القوى الغربية عامة، و فرنسا خاصة بالمنطقة. فإعلان عبد الناصر في 26 جويلية 1956م عن قراره بتأميم قناة السويس فجر أزمة دولية من أخطر الأزمات التي مر بها المجتمع الدولي في الفترة المعاصرة [12]. لقد نزل قرار التأميم كالصاعقة على العواصم الأوربية. و فور ذلك، سارع كريستيان بينو إلى استدعاء السفير المصري كمال عبد النبي إلى الكي دورسي Quai d'Orsay حيث قرأ عليه احتجاج حكومته الخاص بتأميم القناة و بالتورط المصري في الثورة الجزائرية. في هذا الاحتجاج، أشار بينو إلى عبد الناصر بعبارة "الدكتاتور الهتليري" و هي عبارة كان يرددها غي مولي [13] الذي كان يشبه عبد الناصر بهتلر، و "فلسفة الثورة" [14] ب 'كفاحي' Mein Kampf [15]. و بالرغم من أن عبد النبي كان من أصدقاء بينو المقربين فإن الدبلوماسي الفرنسي لم يبذل أي جهد لاحترام صداقتهما و لا حتى احترام حصانة ضيف بلده.

كان رد عبد الناصر –كعادته– قويا على سوء معاملة سفيره. ففي أسلوب ساخر غالبا ما أثار غضب الغرب خطب قائلا:

" أما فرنسا، و وقاحة فرنسا، و وقاحة وزير خارجية فرنسا، فأنا لن أرد عليها، بل أترك للجزائر ترد على فرنسا و تعطيها درسا في الأدب... !"

"نعم... سأترك الفرنسيين للجزائر ترد عليهم... سأترك فرنسا و إهانتها و وقاحتها، و قلة حيائها و ما حدث منها بالأمس".

"إن وزير خارجية فرنسا كان قليل الأدب أمس مع سفير مصر في باريس و سأترك للجزائريين أن يلقنوه درسا في الأدب"[16].

لما قال عبد الناصر هذه الكلمات، كانت أزمة السويس قد وصلت إلى طريق مسدود. فلجنة منزيس Menzies[17] لأصحاب الأسهم كانت ما تزال تسعى جاهدة قصد الوصول إلى اتفاق مع القاهرة.

من جهة أخرى، أصبحت إسرائيل قلقة جدا بعد أن أبعدت سفنها من الملاحة عبر القناة. في المقابل، كانت بريطانيا مترددة حول ما يجب عمله لمواجهة القرار المصري، هذا بالرغم من كراهيتها العميقة لعبد الناصر، لما صدر عنه من حملات ضد "عروش الشرق الأوسط" مزعجا بذلك حكومة إدن Eden، ب الإضافة إلى أن تهديدات عبد الناصر المستمرة بتوقيف بترول العرب عن

أوربا لم تساعد على خلق علاقات عادية بين بريطانيا وحكومة الثورة في مصر [18]. من الجانب الفرنسي كانت الأمور واضحة جدا. فكابوس غي مولي الدائم تمثل في إيجاد وسيلة لربح الحرب في الجزائر. و لهذا كان على استعداد لعمل كل ما في وسعه لتأديب من كان يظنه مصدر متاعب فرنسا في شمال إفريقيا. و عليه رأت فرنسا أنه من الطبيعي التحالف مع كل من إدن Eden، و بن غوريون Ben Gurion في إطار مؤامرة ثلاثية تهدف إلى القضاء على عبد الناصر و من خلاله على الثورة الجزائرية. لذلك شرعت كل من بريطانيا و فرنسا و إسرائيل في تنفيذ هجومها المباغت على مصر. إلا أن الهجوم سرعان ما أوقف في اليوم الموالي بتدخل من الأمم المتحدة.

كان العدوان الثلاثي كارثة على مصر لما نجم عنه من تخريب و دمار ناتج عن قصف القوات المعتدية العشوائي، و الذي ذهب ضحيته الكثير من الأبرياء. مع ذلك لم تحقق القوات المعتدية هدفها الرئيسي و المتمثل في تحطيم الجيش المصري و القضاء على عبد الناصر، أو إهانته للتقليل من قيمته في عيون الجماهير العربية. بالعكس. ان شعبية عبد الناصر بعد العدوان بلغت آفاقا لم تبلغها من قبل. و كذا الأمر بالنسبة لشهرة جبهة التحرير الوطني التي أصبحت تتلقى المساعدة العلنية ليس من مصر فحسب بل من كافة الدول العربية الأخرى. في حقيقة الأمر، فإن هجوم فرنسا على مصر لم يؤد سوى الى إطالة معاناتها في الجزائر. أما عبد الناصر، فإنه خرج ظافرا من الرهان.

لقد خسر عبد الناصر معركة بور سعيد، و لكنه ربح معركة مصر و الأمة العربية. مقابل ذلك، فإن لجوء فرنسا الى عدوانها على مصر والقرصنة الجوية (اقتناص طائرة قادة الثورة) لم تجن منه سوى حرمان نفسها من حل تفاوضي مع زعماء الثورة في بداية المشوار[19].

فمنذ ذلك الوقت، ظلت المسألة الجزائرية في مهب الرياح إلى أن جاء دي غول Gaulle De إلى الحكم في 1958م. حينئذ بدأت إرادة السياسة تتغلب و تأخذ مكانة إرادة القوة، و وضعت الجزائر تدريجيا على الطريق المؤدي إلى الاستقلال رغم أن ما اصطلح على تسميته بحملات إحلال الأمن Campagnes de pacification لم تتوقف إلى غاية الأيام الأخيرة من الوجود الفرنسي بالجزائر.

أخيرا، بإمكاننا القول أن ساسة فرنسا هم المسؤولون الأوائل عن هزائمها المستمرة. ما وقع في دين بيان فو Dien Bien Phu و بور سعيد، و الجزائر لا يمثل سوى محطات بارزة من سلسلة متواصلة من الهزائم. فالمعضلة الكبرى تمثلت في اعتقاد ساسة فرنسا بأن بإمكانهم حل مشاكل المستعمرات عن طريق تجاهلها فقط. أو مثلما عبر عنه إيف كوريار Yves Couriere، "ان الجمهورية لم تحاول مجابهة المشكل فعليا. فالدولة الأم لم تشرع في التفكير في وضع الجزائر إلا بعد أن أريقت الدماء. دماء الأوربيين بطابع الحال. لم نرد اعتبار المسلمين أناسا. و لما فعلنا كل ذلك فات الأوان"[20].

هذا لا يعني أن ساسة فرنسا لم يتوقعوا استقلال الجزائر. بالعكس، كانوا كلهم على دراية أنه لم يكن هناك من حل للمسألة الجزائرية ما عدا الاستقلال، إلا أن قلة العزيمة و الشجاعة للشروع في عهد جديد من العلاقات الفرنسية – الجزائرية، كانت هي السمة التي ميزت ساسة فرنسا الذين تعاقبوا على الحكم في باريس: "كل رؤساء الحكومات الذين تعاملوا مع المشكل الجزائري من 1952م إلى 1958م، باستثناء واحد، تيقنوا مع مرور الوقت أن نوعا من الاستقلال أصبح حتميا. إلا أن اعتقادهم هذا جاء متأخرا"[21].

بسبب تخوفهم، و حذرهم الشديدين من الشروع في أي شيء من شانه أن يزعج المعمرين في الجزائر، لم يبق أمام ساسة فرنسا سوى توجيه الأنظار إلى الخارج بحثا عن الحل.و عاد الأمر إلى مسؤولين أمثال روبرت لاكوست و غيره إلى اتخاذ قرار استعمال القوة ضد عبد الناصر سنة 1956م آملين تحطيم مصر و الثورة الجزائرية في آن واحد. لقد راهنوا، إلا أن النتائج كانت وخيمة عليهم، لم ينجم عن عملهم سوى الإسراع في الإطاحة بالجمهورية الرابعة التي حاولوا جاهدين –يا للغرابة– الحفاظ عليها

بكل ما أوتوا من قوة. فالهجمات العسكرية على بور سعيد و ساقية سيدي يوسف و قاعدة العربي بن مهيدي بالحدود الغربية لم تكن نكسات عسكرية فرنسية فحسب –كون أن الثورة الجزائرية تدعمت أكثر في الداخل و الخارج بعد ذلك – بل أديا تدريجيا إلى نفور حتى حلفاء فرنسا التقليديين من طروحاتها. فبخصوص الهجوم على مصر، ضمت الولايات المتحدة صوتها إلى صوت الإتحاد السوفياتي و طالبت القوات المعتدية بالجلاء الفوري، أما قصف ساقية سيدي يوسف في 1957م، لم تستنكره شعوب العالم المحبة للسلام فحسب بل استنكرته حتى الولايات المتحدة و بريطانيا حليفتا فرنسا التقليديين.

- **الهوامش:**

1 –من أشهر الشهادات حول هذا الموضوع نذكر: فتحي الديب، عبد الناصر و ثورة الجزائر، القاهرة: دار المستقبل، 1984م.

- **Robert Merle, Ahmed Ben Bella, Trans. Camilla Sykes, (New York : walker and compagny, 1967).**
- **Mohamed Lebjaoui, Vérités sur la Révolution Algérienne, (Paris : Gallimard, 1970).**

2 –بإمكان القارئ الرجوع إلى مقتطفات من هذا التقرير في:

- **Claude Paillat, Deuxième dossier secret de l'Algérie, Paris : les presses de la cité, 1968) ;p.p 17-20.**

3- Irving Brown, « Algerians » Die for freedom not for Moscow, « africa today, III (July, August, 1955).

4- Kenneth Love, Suez : The Twice Fought war, (New York : Mc Graw Hill and Compagny, 1969). P.129.

5 –نفس المرجع : ص 142.

6 – نفس المرجع: ص 249.

7- Hugh Thomas, (New York, Hayer and Row Publishers, 1966), p.19……

8 –نفس المرجع: ص 19–20.

9- Time magazine, Octobre 29, 1956, p.28

10- Time magazine, Novembre 5, 1956. P.38

11- Time magazine, Octobre 29, 1956, p.28

12 – بالإضافة إلى ما سبق ذكره هناك دراسات أخرى تناولت حرب السويس بالتفصيل. نكتفي بالإشارة إلى بعضها:

- **Christian Pineau, 1956 Suez (Paris : Editions Robert Laffont, 1976).**
- **Donald Neff, Warriors at Suez, (New York : Simon and Schuster, 1981).**
- **Howard M Sacher, Egypt and Israel (New York : Richard Marek Publishers 1981).**

13 – Christian Pineau نفس المرجع: ص 85–86.

14 – فلسفة الثورة كتيب يحمل توقيع عبد الناصر و يتضمن الخطوط العريضة للفكر القومي الناصري.

15 – كفاحي، كتاب ألفه هتلر في السجن دون فيه أهم أفكاره النازية.

16 – كلمة ألقيت في وفود المهنيين بمناسبة تأميم قناة السويس بتاريخ 28 جويلية 1956.

17 – روبرت منزيس، الوزير الأول الأسترالي كان معروفا بمواقفه المساندة لإيدن و عدائه لجمال عبد الناصر.

18- R. Hrair Dekmejian, Egypt Under Nasser (Albany State University of New York 1971), p.45.

19- Anthony Nutting, Nasser (New : E.p Dutton and Co, Inc, 1972) pp.100-01.

20- Yves Courriere, la guerre d'Algérie : les fils de la Toussaint. (Paris : Fayard. 1968) p.27

21- Dorothy Pickles, Algeria and France: from Colonialism to cooperation (New York : Frederick A Praeger Publishers, 1963, p.52.